مرايا السّين

علال الحجّام

تغيبُ الشمسُ أو تبدو
على مرآةِ نهرِ « السينْ »
سيانَ الدجى والنورُ
« إيّفلْ » شوكةٌ في القلب سامقةٌ
وأحمدُ في سراديبِ الرَّدَى القاسي
جوازٌ مُثْقلٌ بالنفي
تأشيراتُ كلِّ جارك الأصْقاعِ تَزْحَمُهُ
وأحمدُ في دهاليزِ المخافرِ مثقلٌ بالشوقِ
تَقْضي الليلةَ الأولى على الإسْفَلْتِ
مَكْلُومَ الحَشَى يأسَى
كأنَّ جبينَهُ الشمسيَّ قنبلةٌ على وشْكِ آنْفجارِ
يُخْمِدُ البُوليسُ بَلْوَاها،
وأمتعةٌ مطاراتُ العَمَى الكونيِّ تخْشاها
وذاكَ « سَبُو »[1] الذي في القلبِ يعرفُهُ
نشيداً من أناشيدِ الهَوَى القرويِّ
يَمْتَزِجُ الثَّرَى والنُّورُ فيهِ وفَوْحَةُ الأعشاب
أحْلى من عطورِ المِسْكِ والرَّيحانْ.

★ ★ ★

وَذاكَ « سَبُو » الذي في القلبِ يعرفُ
- مُنْذُ كانَ مُحاصَراً بِكَتِيبَةِ عرجاءَ -
أنَّ أَبَاهُ ما صَلَّى سوى للأرضِ
حيثُ الأرضُ ما خانَتْ ولا انسحبَتْ
وأنَّ أباه ما خَانَ الترابَ هُنَيْهَةً
وهْوَ العروقُ تطولُ في نُعْمَى رَوَابِيهِ
رَوَى ما خطَّهُ المحراثُ من عَرَقِ الهَجيرِ
وسُمْرَةِ الزَّنْدَيْنِ والصدرِ
فهُوَ دَمٌ
يَشُقُّ منابعَ الفقراءِ إذْ جَفَّتْ حياضُ الأرضِ

(١) سبو: نهر مغربي.

حنىَّ يَسْحِمَّر الذئبُ في النهرِ
وما أقسى الهوى الغجريَّ،
قالتْ مَرَّةً زنوالُ[2]:
عرجاءُ أنا يا أَهْلُ
مَنْ مِنْكُمْ
يُسَوِّي ساقِيَ اليُسْرَى؟
تبسَّم تحت وَقْدِ النقعِ والبارودِ
قالَ: أنا
إليكِ الساقَ يا قَلْبَاهُ والنَّفْسَ
فكانتْ ساقُ زنوالَ الحبيبةِ ساقَهُ اليُسْرى
فهو الآنَ في سوقِ الكسادِ المرِّ
أعرجُ في دروبِ « البُرْجِ »[3]
يَحْكي عن ليالي الحَرْبِ
في جلْبَابِهِ الأيامُ مُعْتِمَةٌ
وفي عَيْنَيْهِ ألفُ غزالةٍ تأتي مَعَ الأرياحِ
يَدْفَعُ دَهْرَهُ المَوْصُوصَ في العَرَبَهْ
ويدفعُ جرحَهُ الخشبيَّ يَحْشُو بالمُنَى قَلْبَهْ
يَبيعُ البُرْتُقَالَ وفَوْحَةَ النَّعْنَاعِ
يمنحُ بسمةً خضراءَ بالمجانِ
للشارينَ والماشينْ!

★ ★ ★

وأنتَ هناكَ عبرَ شوارعِ الأتعابِ
بينَ « السِّينْ » وبينَ دموعِكَ الحمراءِ عينُ الحارسِ الجَافي
وبين الكأسِ والشفتينِ أرْبَعُ أعْيُنٍ
تُحْصي عَلَيْكَ النَّشْوَةَ التَّعْبى

(٢) زنوال: القرية التي خاض فيها عبد الكريم الخطابي معاركه الباسلة ضد الاستعمار الأسباني.

(٣) البرج: حيّ من الأحياء الهامشية بمدينة مكناس.

تُسَافِرُ في قطارِ الوَيْلِ،
عيناكَ اللتانِ أَنهَدَّتَا، بالصِّدْقِ تَنْطَفِحَانِ
لا تشرُدْ،
وحين ترى ملامِحَكَ الخَبيئَةَ في مَرَايَا « السِّيْنْ »
تُكَفِّرُ عنْ خطَايا كفرِكَ الوَثَنِيِّ
تَذْكُرُ في فَيَافِي حُبِّكَ الغَجَرِيِّ نَهْرَ « سَبُو »
وتَذْكُرُ أنَّ فيه البَسْمَ والأنوارَ
والنيرانَ والظلماءَ
أحمدُ هلْ رأيتَ أباكَ في « أَرْوَامْزِينْ »(٤)
يُوقِدُهُ اشتدادُ القهرِ
بين متاجرِ الأوباشِ والأقواسْ
يُطاردُ رِجْلَهُ العَرْجَاءَ
والحَمّالَةَ الخشبيَّةَ العساسْ
يطاردُ قلبَهُ المحزُونَ خُبْزُ الليلةِ العجفاءِ
قوتُ الصِّبْيَةِ المَرْضَى
صَفيرُ الحَرَسِ البَلَدِيِّ
سيفُ الخبزِ أعلنَ حَرْبَهُ الكَوْنِيَّةَ الجَرْبَاءْ
وليسَ لَدَيَّ سيفٌ أيُّها الأحبابُ - يَصْرُخُ - آهِ
مَنْ منكُمْ يُنَاصِرُني
وأَعْزَلُ في الدُّرُوبِ أَنَا
حُسَامِي الحقُّ يَعْلُوُ الرَوْعَ والأَوْجَاعْ
وَمَنْ منكُمْ سَيُشْرِعُ في الجدارِ البابْ
لكُتْلَةِ أعظُمٍ وجَوَى
- يقيناً - إنها في الحربِ لمْ تُهْزَمْ
فمنْ منكم يُدَاوِي الجرحَ والأَوْصَابْ!؟

★ ★ ★

قالتْ مرةً زنوالُ أذكُرُهَا:
أنا عرجاءُ
من منكمْ يُسَوِّي ساقيَ اليُسْرى؟
فكانتْ ساقُ زنوالَ الحبيبةِ ساقيَ اليُسْرَى
وها هي ذي وقد غابت بِخِدْرِ الليلِ
شمسُ اللهِ والفقراءِ
بلادي تفتحُ الفَخِذَيْنِ بالمَجَّانِ للأغرابْ!

مكناس (المغرب)

(٤) اروامزين: من شوارع المدنية القديمة بمكناس.

شهادة موضوعية في "انسانية الاسلام"

- تتمة المنشور على الصفحة ٦ -

الحي على « شهامة » الحرب الإسلامية فهو الإمكان الذي يوفره الإسلام لكل مسلم على ساحة القتال بأن يمنح الحماية، باسم الجماعة بأسرها، ومن موقع المسؤولية، لواحد أو أكثر من الاعداء، حتى وإن كانوا داخل حصن منيع؛ وكذلك السماح للمقاتل الممنوح حق الحماية بالعيش « حرّاً » بين المسلمين، لأن منحه الحماية لا يعني أنه غدا « اسير حرب ». وعلى هذا تصبح « مؤسسة الحماية » أسخى تعبير عن « الامان » الذي يساعد على تجنّب المجازر واراقة الدماء سدى.

ولا يفوت السيد بوازار أن يفيض في الحديث عن معاملة المسلمين لأسرى الحرب الذين يحضّ القرآن على الإحسان اليهم، ويسلك هذا الإحسان في عداد الصالحات والبر والتقوى في أكثر من مناسبة. كما لا يفوته أن ينوّه بموقف الإسلام الإنساني من النزاع، وحثه المقاتلين المسلمين على الجنوح إلى السلم إذا جنح العدو:« وإن جنحوا إلى السلم فاجنح لها » (الانفال/٦٠).

ويقدم المؤلف في الفصل السادس - تحت عنوان « حاضر الإسلام » - عرضاً للحركات الاصلاحية التي ظهرت في عصر النهضة (بمفهومه العربي طبعاً)، والتيارات الفكرية والايديولوجية الدخيلة على المجتمع الإسلامي، ثم يحلل الاتجاهات السائدة في البلدان الإسلامية لايجاد حلول للمشكلات الراهنة، فيؤكد أنها مهما تباينت واختلفت فإنها تظل تستلهم أطرها الأساسية من المباديء الإسلامية، لأن المسلمين لم ينجحوا في ادراك المباديء التي ادت في اوروبا إلى الحضارة، واكتفوا بتلقي انعكاساتها المادية الخالصة ومحاولة محاكاتها.

وأخيراً يعود السيد بوازار في « ختام » مؤلفه فيؤكد أن هناك نظاماً جديداً برسم الاعداد، وانه لا يمكن ان يبنى مثل هذا النظام على احقاد التاريخ التي هي - كما يقول بول فاليري - « أخطر نتاج طلعت به كيمياء الفكر »، وانه لا يمكن أن يكون هذا النظام اقتصادياً أو سياسياً بصورة حصرية، بل يجب أن يكون كذلك قانونياً وثقافياً وخلقياً. ولا يفوته أن يقرر في هذا المقام أن مساهمة الإسلام في اعداد هذا النظام نفيسة وموضوعية للغاية، ووأن الإسلام في مجمله « يتراءى من جديد في العالم المعاصر وكأنه احدى الاجابات على التساؤلات المطروحة عن مصير الإنسان والمجتمع ».